



رفضاً للانتحار

في التاريخ اليهودي، ترمز "عقدة مسّادة" الى النزعة الانتحارية التي تفضّل الهلاك على التسوية، حتى من دون الفاعلية التي تفترضها صرخة شمشوم المذكورة في التوراة "عليّ وعلى اعدائي، يا رب". لكن عقدة مسّادة تنذر الآن بالخروج من التاريخ اليهودي لتقتحم تاريخ العرب، كأنه لم يكفنا الضرر الذي جاءنا من تبني المنطق الشمشومي في الأونة الاخيرة. مسّادة هو اسم القلعة الواقعة غرب البحر الميت التي انتحر فيها المتبقون من ثورة اليهود ضد الرومان في العام ٧٣ للميلاد، اثر حصار دام اكثر من سنة، فكانت نقطة النهاية ل"حرب اليهود" التي خاضها الامبراطور تيتوس، ونقطة البداية ل"الدياسبورا" الكبيرة.

وبعد الف وتسع مئة وبضعة اعوام، عادت عقدة مسّادة الى الواجهة عندما استولى الهذيان الديني على المشروع الصهيوني الذي كان احرز نجاحاته الاولى بفضل اقصى درجات البراغماتية العلمانية. ومن مناحيم بيغن الى اسحق شامير فبنيامين نتنياهو، صار العديد من اليهود الصهيونيين في العالم يخافون على اسرائيل من استسلام قادتها الملهمين امام عقدة مسّادة، حتى اذا جاء ارييل شارون الى رأس السلطة بدا ان السباق الى الانتحار سيغلب اي اعتبار آخر.

والحق ان شارون لم يتأخر في تأكيد المخاوف التي علقت عليه (وهي امان عند كل المتضررين منه)، وكان سلوكه بعد ١١ ايلول "نموذجياً" من هذا المنظار، فخاطر بتوتير العلاقة الحميمة مع الولايات المتحدة، الامر الذي يوازي الانتحار بالنسبة الى اسرائيل. غير ان شارون وجد من ينقذه من لاعقلانيته. وجد من يسبقه الى الانتحار. وجد بعض ضحاياه يستعجلون موتهم من دون ان يأبهوا لانتحاره. وجد عقدة مسّادة تنتقل الى فكر سحري آخر، فتؤخر مسّادته. لم يكن شارون في حاجة الى البحث طويلاً للعثور عمّن يسهّل عليه عمله. فحتى اذا تغافلنا عن الجذور الملتبسة للاصولية الدينية في الوسط الفلسطيني والدعم غير الملتبس الذي وقّرت له سلطات الاحتلال في بداية الثمانينات على امل اضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية وتجاوز منظمة التحرير (ناهيك باليسار في الاقلية العربية في اسرائيل)، وحتى اذا افترضنا ان صلة التواطؤ الاصلية يمكن ان تستحيل تناقضاً عنيفاً، مثلما حصل بين ابن لادن والاستخبارات الاميركية، كان يمكن شارون ان يركن الى جهوزية الاجنحة الاكثر دوغماتية في الاصولية الفلسطينية لمجاراته في تصعيد لا طائل للشعب الفلسطيني على تحمّله في عصر الانحلال العربي. يحق لشارون ان ينتحر ان شاء، ومعه كل الذين يتشبّهون به.

اما ان تقرّر اقلية في فلسطين "انتحار" شعب باكملة، وبالنيابة عنه، وفي اللحظة التي كان يوشك على قطف ثمار نضاله، ولو مجتزأة، فهذا ما لا يقبله عاقل ولا تقرّه شريعة. هذا ما لا يجوز ان يحصل، حتى وان تكن الكلفة لمنعه اعلى من دموع العين. وليست شراسة الهجمة الاسرائيلية الجديدة حجة في اي حال من الاحوال لتأجيل الحسم. فهذه الهجمة، على بشاعتها، ليست الضربة القاضية، ويسر عرفات نجا من تهديدات اكثر حراجة في تاريخه الطويل. لكن نجا عرفات، ومعه



المؤسسات التي بناها الشعب الفلسطيني بالدم والالام والمستقبل الذي يتوق اليه، تستوجب الحسم هذه المرة.

و اول امر يجب ان يحسم هو ان لا ظروف تخفيفية لمن يتلاعب بالمصير الوطني، فليس الجهاد صك براءة وليس كل من يعتقد انه يقاوم اسرائيل براء حكماً من تهمة الانقلابية. ربما كان يمكن التردد لو ان التيارات الاصولية اثبتت انها اكثر فاعلية من غيرها، لكن النجاحات الفلسطينية، واولها بقاء الشعب الفلسطيني حياً، وثانيها استعادة بعض من جغرافيا فلسطين، وثالثها اقتحام الوعي العالمي، لا تعود قطعاً الى الفكر الديني، بل هي جاءت، رغم الاخطاء، بنتيجة ادراك الموازين التي تتحكم بالاطار الاقليمي والدولي (والثقافي ايضاً) للصراع، كما بالمعادلات الاسرائيلية الداخلية.

وليست تجربة جنوب لبنان ما يوحي غير ذلك، اذ ان دقة الحسابات هي التي ميّزت معظم الوقت استراتيجيا "حزب الله"، بصرف النظر عن خطاب يفرط في الجهادية، وآخر دليل عن هذه البراغماتية المقنعة رضوخ لبنان وسوريا، وإن متأخرين، الى الاملاء الاميركي وسيادة منطق الهدنة على جبهة مزارع شبعا بعد بطلان الحسابات التي كانت استحدثتها. كان يمكن ايضاً التردد لو ان التيارات الاصولية اظهرت قدرة تعبوية فقدتها تيارات أخرى على الساحة العربية.

لكنه سبق للشارع العربي ان اثبت بما لا يحمل اللبس ان فلسطين لم تعد تحركه، وها هو قد اكد بالاضافة الى ذلك ان الحمية الاسلامية التي عول عليها ابن لادن وما انفك يلوح بها دعاة الجهاد التلفزيوني بعد ١١ ايلول، ليست اكثر تحريكاً. وامام القبول العربي العام بالهيمنة الاميركية، ماذا يعني بقاء الخطاب الحربي العربي الموجه الى الفلسطينيين، دون سواهم، غير النفاق؟ ام ان على الفلسطينيين ان يموتوا تكفيراً عن ذنوب العرب اجمعين؟ قبل تسعة عشر عاماً، لم يجد الديكتاتور الليبي معمر القذافي ما يفعله لنصرة المقاومة الفلسطينية المحاصرة في بيروت سوى دعوتها الى الانتحار الجماعي.

وقتئذ، لم يكثرث احد في الشعب الفلسطيني وفي قيادته لهذه النصيحة الكريمة. ولا سبب اليوم لتعديل موقف الرفض لهذه الدعوة، وان جاءت هذه المرة من الداخل. على العكس تماماً، فان الافق اليوم هو اكثر وضوحاً من اي وقت مضى، رغم حلاكة اللحظة. وفي اي حال، ليس استبطن عقدة من تاريخ العدو ما يصبو اليه السواد الاعظم من الشعب الفلسطيني.

واذا كان لا بد من الاستنارة بشيء من هذا التاريخ، فلعل الافضل الاتعاظ من تجربة بن غوريون، مؤسس اسرائيل الذي لم يتأخر يوماً عن القبول بما اعتبره تنازلاً ولم يتوان، بعد شهر من اعلان الدولة، على نسف باخرة تحمل السلاح الى حركة "ارغون"، سعياً للحفاظ على وحدانية القرار. واذا كان التمثل بالتاريخ الاسرائيلي صعباً، فيمكن الالتفات نحو ما حصل في افقر بلدان الارض. فلعل الدرس الابلق هو الآتي من افغانستان حيث لم تؤد فوضوية "تحالف الشمال" الى تصفية الحسابات التي كانت تخشى، ولا جهادية الملا عمر منعتة من الرضوخ الى القدر الاميركي، صوتاً للارواح.

سمير قصير



Id-Reference	01-Pr-000483	
Media	(Support)	HC
Title		رفضاً للانتحار
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		٢٠٠١/١٢/٧ 7/12/2001
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	اسحق شامير - بنيامين نتنياهو - شمشوم - تيتوس - اريبيل شارون - بن لادن - ياسر عرفات - مناحيم بيغن - معمر قذافي - بن غوريون -
	Locations	شرق اوسط - لبنان - سوريا - افغانستان - مسّادة - بحر ميط - جنوب لبنان - مزارع شبعا
	Dates	73 D.C.
	Themes	شرق اوسط - تسوية - شمشوم - توراة - تاريخ يهودي - تاريخ عرب - حرب يهود - مشروع صهيوني - عقدة مسّادة - ثورة يهود - دياسبورا - يهود صهيونيين - اريبيل شارون - اصولية دينية - استخبارات اميركية - فلسطين - تيارات اصولية - حركة وطنية فلسطينية - منظمة تحرير - حزب الله - طالبان - ال ايلول - ياسر عرفات - شعب فلسطيني - مقاومة فلسطينية - حرب "ارغون"
Subject		